

حتى بلغ ذلك اليتيم الهاشمي المكي الأربعين من عمره، وتلقى رسالة الوحي في شهر رمضان بعد ستة قرون ونحو من عشر سنين من ميلاد المسيح عليه السلام، فالتفت التاريخ إلى مكة، وتوقف برهة يجمع كل ما وعت ذاكرتها عن ذلك المصطفى وآبائه وعشيرته، وعاد يصحبه من مهد مولده في دار أبيه عبد الله بجوار البيت العتيق.

ولم تكن ذاكرة مكة قد أفلتت شيئاً ذا بال، من أخبار يتيما الهاشمي من مولده إلى مبعثه، وقد تعلقت به تتابع خطاه على درب الحياة.

وهي التي أعطت التاريخ ما احتاج إليه بعد المبعث، من أخبار سيرته في المراحل الأولى من حياته، إذ تفد المراضع من بنى سعد بن بكر ليحملن رضعاً قريش بعيداً عن جو مكة القاسي، ويُعرض عليهن «محمد بن عبد الله» فيزهدن فيه يُتمه، وأن لم يكن ذا ثراء يكافئ نسبه الشريف في البيت الهاشمي القرشي، وقد مات أبوه في مقتبل العمر قبل أن يتأثّل لنفسه مالا، لم يترك لولده اليتيم وأمه، سوى جاريتيه الحبشية «بركة، أم آيين» وقطعة يسيرة من الإبل والغنم.

وأحزن «أمّنة» أن ترى المراضع يوشكن أن يرجعن إلى البادية زاهدات في وليدها الشريف اليتيم، مؤثراتٍ عليه أطفال أنرياء الأحياء ممن يُرجى منهم الخير الوافر.

غير أن واحدة منهن: «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، زوج الحارث بن عبد العزى، من سعد بن بكر بن هوازن»، رجعت إلى أم محمد تطلبه رضيعاً لها، بعد أن انصرفت عنه أول ذاك النهار كسائر المراضع. وحفظت مكة من قصة الرضاعة، ما نقله التاريخ بعد المبعث، من رواية عبد الله بن جعفر الطيار الهاشمي رضى الله عنها - فيما أسند عنه محمد بن إسحاق - قال: «كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها، بادية بنى سعد، مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً. فخرجت على أتان لي - عجفاء - معنا شارف لنا - ناقة مسنة - والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبيتنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، وما في تديبي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه. ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانى تلك، حتى قدمنا مكة تلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد - رسول الله ﷺ - فتأباه إذا قيل لها إنه يتييم. وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتييم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجدّه؟

«فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً، غيرى، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ